توحيد الربوبية

الدرس الثاني

اعداد

أ.د.سعود بن عبدالعزيز الخلف

الدرس الثاني

معنى توحيد الربوبية

أ–معنى الربوبية:

الربوبية مشتقة من الرب وهو اسم من أسماء الله تعالى، ومعنى الرب: المالك، والخالق،. والرب: المصلح للشيء. يقال رب فلان ضيعته، إذا قام على إصلاحها. ورب كل شيء: مالكه ومستحقه؛ وقيل: صاحبه. ويقال: فلان رب هذا الشيء أي ملكه له. وكل من ملك شيئا، فهو ربه. يقال: هو رب الدابة، ورب الدار، وفلان رب البيت، وهن ربات الحجال. والله جل ثناؤه الرب؛ لأنه المالك والخالق وَالسَّيِّد والمدبر والمربي والقيم والمنعم ومصلح أحوال خلقه، وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له.[1]

إطلاق كلمة رب على المخلوق؟

الرب بالألف واللام غير مضاف لا يطلق إلا على الله تعالى، ولم يرد مثل هذا الإطلاق في القرآن الكريم، وإنما ورد في السنة كقوله ﷺ " يقال لجهنم: هل امتلأت، وتقول هل من مزيد، فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها، فتقول: قط قط "[2]

وعن ابن عباس، قال: كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: «أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم»[3]

وقد جاء في الشعر مطلقا على غير الله تعالى، وليس بالكثير.[4]

---

(1)مقاييس اللغة لابن فارس(٢/ ٣٨١) تهذيب اللغة للأزهري (١٢٨/١٥) النهاية في غريب الحديث لإبن الأثير (٢/ ١٧٩) مختار الصحاح (ص: ١١٦) لسان العرب (١/ ٣٩٩)

(2)صحيح البخاري (٦/ ١٣٨)

(3)صحيح مسلم (١/ ٣٤٨)

(4)النهاية في غريب الحديث لإبن الأثير (٢/ ١٧٩) مختار الصحاح (ص: ١١٦) قال الرافعي في المصباح المنير (١/ ٢١٤) وربما جاء باللام عوضا عن الإضافة إذا كان بمعنى السيد.

قال الحارث اليشكري: فَهُوَ الرَّبُّ وَالشَّهِيدُ عَلَى يَوْ ... مِ الْخِيَارَيْنِ وَالْبَلَاءُ بَلَاءُ

وأكثر ما ورد في القرآن الكريم مقصودا به الله عز وجل مضافاً كقوله تعالى﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الفاتحة: ٢ وقوله تعالى﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الشعراء: ٢٦ ونحوها.
وإذا أطلق كلمة "رب" على غير الله عز وجل أضيفت، فيقال رب كذا.

وقد وردت مقصودا بها غير الله عز وجل مضافة في القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ يوسف: ٤٢ وقوله تعالى﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾يوسف: ٤١

كما وردت في السنة في قوله ﷺ عن ضالة الإبل :«ما لك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء، وتأكل الشجر، دعها حتى يجدها ربها»(١)

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ ، قال: " لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال، فيفيض حتى يهم رب المال من يقبله منه صدقة، ويدعى إليه الرجل فيقول: لا أرب لي فيه "(٢)

كما ورد في السنة النهي عن اطلاق كلمة رب مضافة إلى الإنسان فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "«لا يقل أحدكم اسق ربك، أطعم ربك، وضئ ربك، ولا يقل أحدكم ربي، وليقل سيدي مولاي» (٣)

وقد بين العلماء وجه ذلك فقال ابن الأثير رحمه الله: كره أن يجعل مالكه ربا له؛ لمشاركة الله تعالى في الربوبية. فأما قوله تعالى ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ فإنه خاطبه على المتعارف عندهم، وعلى ما كانوا يسمونهم به. ومثله قول موسى عليه السلام للسامري ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ﴾طه: ٩٧ أي الذي اتخذته إلها.
فأما الحديث في ضالة الإبل «حتى يلقاها ربها» فإن البهائم غير متعبدة ولا مخاطبه فهي بمنزلة الأموال التي يجوز إضافة مالكيها إليها وجعلهم أربابا لها" (٤).

---

(١)صحيح البخاري (٣/ ١٢٧) صحيح مسلم (٣/ ١٣٤٩)
(٢)صحيح مسلم (٢/ ٧٠١)
(٣)صحيح مسلم (٤/ ١٧٦٥)واللفظ له، صحيح البخاري (٣/ ١٥٠)
(٤)النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ١٧٩)

وقال الخطابي:" سبب المنع أن الإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد لله وترك الإشراك معه فكره له المضاهاة في الاسم لئلا يدخل في معنى الشرك ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد فأما ما لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات فلا يكره إطلاق ذلك عليه عند الإضافة كقوله رب الدار ورب الثوب" (١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "فلا يكون شيء من المخلوقات رباً لشيء من المخلوقات ربوبية مطلقة أصلاً، إذ رب الشيء من يربه مطلقاً من جميع جهاته، وليس هذا إلا لله رب العالمين.ولهذا منع في شريعتنا من إضافة الرب إلى المكلفين، كما قال ﷺ : «لا يقل أحدكم: اسق ربك أطعم ربك» . بخلاف إضافته إلى غير المكلفين، كقول النبي ﷺ لمالك بن عوف الجشمي: «أرب إبل أنت أم رب شاء؟» وقولهم: رب الثوب والدار.فإنه ليس في هذه الإضافة ما يقتضي عبادة هذه الأمور لغير الله، فإن هذا لا يمكن فيها، فإن الله فطرها على أمر لا يتغير، بخلاف المكلفين، فإنهم يمكن أن يعبدوا غير الله، كما عبد المشركون به من الجن والإنس غيره، فمنع من الإضافة في حقهم تحقيقاً للتوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه"(٢).

---

(١)نقلا عن فتح الباري لابن حجر (٥/ ١٧٩) وانظر : شرح سنن النسائي ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٢٢/ ٩٤)

(٢)درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٤١) واعتبر الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في كتابه "القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣٣٩)"التفريق بين حكم الإطلاق من ناحية المضاف الية فالاضافة لضمير المخاطب؛ مثل: أطعم ربك، وضئ ربك؛ فيكره ذلك للنهي عنه؛ لأن فيه محذورين:

١. من جهة الصيغة: أنه يوهم معنى فاسدا بالنسبة لكلمة رب؛ لأن الرب من أسمائه سبحانه، وهو سبحانه يطعم ولا يطعم، وإن كان بلا شك أن الرب هنا غير رب العالمين الذي يطعم ولا يطعم، ولكن من باب الأدب في اللفظ.

٢. من جهة المعنى أنه يشعر العبد أو الأمة بالذل؛ لأنه إذا كان السيد ربا كان العبد أو الأمة مربوبا.

أما الاضافة لضمير الغائب؛ فهذا لا بأس به وكذلك الإضافة إلى الاسم الظاهر أما الإضافة لضمير المتكلم بأن يقول العبد: هذا ربي؛ فهل يجوز هذا؟ قد يقول قائل: إن هذا جائز؛ لأن هذا من العبد لسيده، وقد قال تعالى عن صاحب يوسف**{ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ }** [يوسف: ٢٣] أي: سيدي، ولأن المحذور من قوله: (ربي) هو إذلال العبد، وهذا منتف؛ لأنه هو بنفسه يقول: هذا ربي.

فيتبين من هذا أن إضافة رب الى المكلف غير جائز في شريعتنا لورود النهي عن ذلك حماية لجناب التوحيد، وأن ما ورد في القرآن في سورة يوسف من ذلك إما على أنه مجاراة للمتعارف عندهم، أو أن ذلك جائز في شريعتهم مثل السجود الذي حكاه الله عز وجل ليوسف في قوله ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾يوسف: ١٠٠ الا أن ذلك غير جائز في شريعتنا.

أما إضافتها لغير المكلفين كرب الدار ورب الدابة فذلك جائز لأنها غير مكلفة ولا يظن بالحيوانات خاصة التحول عن فطرتها.

معنى توحيد الربوبية

توحيد الربوبية هو :اعتقاد ان الله هو وحده هو الخالق الرازق المالك والمنعم والمدبر لشؤن خلقه لاشريك له ولاند ولامعين ولاظهير

أو هو ان تقول: توحيد الله بأفعاله كالخلق والرزق والملك والإحياء والإماتة والتدبير والإنعام.

وتعبيرات أهل العلم عن هذا النوع من التوحيد متقاربة

فقد قال ابن القيم رحمه الله: "توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر"[١]

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

"توحيد الربوبية فعل الرب، مثل الخلق والرزق، والإحياء، والإماتة، وإنزال المطر وإنبات النبات، وتدبير الأمور"[٢]

وقال الصنعاني رحمه الله : توحيد الربوبية والخالقية والرَّازقية ونحوها، ومعناه: أنَّ الله وحده هو الخالق للعالَم، وهو الرَّبُّ لهم والرازق لهم، وهذا لا ينكره المشركون ولا يجعلون لله فيه شريكاً، بل هم مُقرُّون به[٣].

وقال السفاريني رحمه الله :" فتوحيد الربوبية أن لا خالق ولا رازق، ولا محيي ولا مميت، ولا موجد ولا معدم إلا الله تعالى." [١]

---

(١)بدائع الفوائد (٤/ ١٣٢)

(٢)مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول) (ص: ٣٧١)

(٣)تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد (ص: ٥٠)

ويلاحظ في هذا النوع من التوحيد تعلقه بالعلم والاعتقاد لهذا سماه بعض أهل العلم التوحيد العلمي الخبري وبعضهم قال توحيد المعرفة والإثبات[٢]

خصائص الربوبية (الخلق والملك والتدبير والمجازاة).

ربوبية الله عز وجل ربوبية مطلقة تشمل الوجود كله خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا وإعانة وهداية وتوفيقا وحياة وموتا لايخرج عنها من الوجود شيء صغر أو كبر عظم أو حقر فهو خالق الموجودات ومنظم حياتها ومدبر أمرها وحافظها وراعيها .

قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ إبراهيم: ٣٢ - ٣٤

وقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ النحل: ٧٨ - ٨١

وقال تعالى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ

---

(١)لوامع الأنوار البهية (١/ ١٢٨)وانظر في التعريف : تاج العروس (٩/ ٢٧٦) تفسير المراغي (١٢/ ١٠٢)

(٢)قد سبق ذكر ذلك عند ذكر تقسيم التوحيد.

مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النمل: ٦٠ - ٦٤

وقال تعالى ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةٗۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ الروم: ٢١ – ٢٦

فله سبحانه الأمر والخلق وهو الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب وهو الذي حفظ أعمال العباد وهو الشهيد عليهم بها وسيحاسبهم عليها قال تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأعراف: ٥٤ ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ الأنعام: ٦١ - ٦٢

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ المؤمنون: ٤٤

وقال تعالى ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ الحديد: ٢٥

وهو الذي يعلم الغيب وحده وعلمه محيط بكل شيء ولايعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض قال تعالى﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ الأنعام: ٥٩

وقال تعالى﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٨

وقال تعالى ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ النمل: ٦٥

والآيات في هذه المعاني كثيرة قال ابن القيم رحمه الله :"فيشهد صاحبه –أي المقر بتوحيد الربوبية– قيومية الرب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده، فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبر لأمر المملكة – ظاهرا وباطنا – غيره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجري حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يغرب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه، وأحاطت بها قدرته، ونفذت بها مشيئته، واقتضتها حكمته، فهذا جمع توحيد الربوبية"(١).

فعليه فإن خصائص الربوبية هي الشمول المطلق خلقاً وملكاً وتدبيراً وتصرفاً وعلماً وإحاطةً وشهوداً وإحياءً وإماتةً وبعثاً ومجازاةً ليس لأحد من الخلق شيئا من ذلك إلا ما أقدرهم عليه مما ليس لهم فيه الاستقلال والانفراد بل لابد لهم من معين على تحصيله يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : فتوحيد الربوبية " أنه لا خالق إلا الله فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور؛ بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فكل ما سواه إذا قدر سببا فلا بد له من شريك معاون وضد معوق فإذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه حتى ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لا يفعلها إلا بإعانة الله له كأن يجعله فاعلا لها بما يخلقه فيه من الإرادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة

(١)مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٧١) وانظر نحوا من ذلك للزبيدي في تاج العروس (٩/ ٢٧٦)

وعند وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المقدور. فمشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وما سواه لا تستلزم إرادته شيئا؛ بل ما أراده لا يكون إلا بأمور خارجة عن مقدوره إن لم يعنه الرب بها لم يحصل مراده ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله"[1]

عبودية الخلق المتعلقة بالربوبية (العبودية العامة).

إن ربوبية الله عز وجل يخضع لها كل مافي الكون لا يخرج عنها مربوب ولايشذ عنها مخلوق، فالكل خاضع لها وتحت ناموسها وماض فيه حكمها قال تعالى ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ مريم: ٩٣ فهذه هي العبودية العامة التي لايخرج عنها أكبر جرم مخلوق ولا أصغر موجود فالكل مدبر مربوب.

ب–أدلة توحيد الربوبية:

إن الربوبية هي قاعدة الألوهية وهي الأصل في الألوهية فلا ألوهية بدون الربوبية والألوهية أي العبادة هي الغاية من خلق الجن والإنس كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦ فإذا كانت الألوهية بهذه الأهمية فموجبها ومقتضاها ودليلها وهو الربوبية بنفس الدرجة من الأهمية فلذا كان من رحمة الله ﷻ أن جعل البراهين على الربوبية قطعية ظاهرة لكل ذي عينين لاتخفى إلا على من لم يرد أن يرى ويبصر ويلتزم بلازمها وهي الألوهية.

---

(١)مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٣١)

والدلائل على الربوبية متنوعة كأصول ومتفرع عن تلك الأصول مئات بل الوف بل مالايمكن فيما أرى حصره من الأدلة إذ الأمر كما قيل :

فيا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكة..... علينا وتسكينة شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[1]

والدلائل التي يذكرها أهل السنة خمسة دلائل وهي

الدليل الأول :الفطرة :

الفطرة لغة : هي الخلقة .[2]

والمراد بدليل الفطرة: أن الله تعالى خلق العباد مفطورين على الإقرار به، واعتقاد أنه خالقهم وربهم ومعبودهم . وهذا هو المروي عن كثير من السلف ، فقد روى ابن جرير الطبري بسنده أن عمر ﷺ مر بمعاذ بن جبل فقال :" ما قوام هذا الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات : الإخلاص ، وهو الفطرة ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الروم(٣٠)، والصلاة : وهي الملة ، والطاعة : وهي العصمة ، فقال عمر : صدقت .

وروى عن مجاهد أنه قال : فطرة الله الإسلام ".[3] وهو قول أكثر السلف.[4] وقد دل على ذلك أدلة عديدة ، منها :

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ الأعراف: ١٧٢.

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا قال: "**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان –يعني عرفه– فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه**

---

(١)نقلا عن صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال (١/ ١٤١) والأبيات لأبي العتاهية. مختار الصحاح (ص: ١٣٤)

(٢) اللسان ٣٤٣٣/٥ .

(٣) تفسير ابن جرير ٤٠/٢١ .

(٤) انظر شفاء العليل ٢٩٧/٢-٣١٥ ، وانظر القائد إلى تصحيح العقائد ص١٨ .

كالذر ثم كلمهم قبلا قال: "ألست بربكم" قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين".[1]

و في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، أن الله أخذ عليهم الميثاق بالإقرار له بالربوبية والألوهية فقال:" فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرَضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم: أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا! اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئًا، وأني سأرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدي وميثاقي، وسأنزل عليكم كتبي! قالوا: شهدنا أنك ربُّنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك. فأقرُّوا له يومئذٍ بالطاعة" [2]

ومن الأدلة على أن الفطرة هي الإسلام أو الإقرار لله عز وجل بالربوبية والألوهية قوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم: ٣٠

وكذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء**".[3]

وحديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته:" **ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا : كل مال نحلته عبداً حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا** ..."[4] الحديث.

فهذه الأدلة تدل على أن الخلق مفطورون على الإقرار بالخالق وأنه ربهم وخالقهم ومعبودهم وأنهم تتغير فطرهم تلك بما يحرفهم إليه آباؤهم من اليهودية والنصرانية وغيرهما .

والمقصود هنا في الفطرة الإسلام الذي هو الإقرار لله بالعبودية وبهذا فسرها أهل العلم من السلف قال ابن حجر رحمه الله: " وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام، قال بن عبد البر وهو

---

(١) حم (٢٧٢/١) وذكر ابن كثير في تفسيره (٢٤١/٢) روايات عديدة في هذا المعنى ورجح وقفها على ابن عباس رضي الله عنه .

(٢)تفسير الطبري (١٣/ ٢٣٩)وقال الشيخ أحمد شاكر :إسناد صحيح، مضى مثله مرارا.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، فتح الباري (٢٤٦/٣)

(٤) أخرجه مسلم كتاب الجنة، باب ١٦ (٢١٩٧/٤)، وأحمد (١٦٢/٤).

المعروف عند عامة السلف وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الإسلام واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب اقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وبحديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم"؛ الحديث، وقد رواه غيره فزاد فيه "حنفاء مسلمين" ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى "فطرة الله" لأنها إضافة مدح وقد أمر نبيه بلزومها فعلم أنها الإسلام"(١)

وقال ابن قتيبة رحمه الله : وأراد بقوله: "كل مولود يولد على الفطرة" أخذ الميثاق الذي أخذه عليهم في أصلاب آبائهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾الأعراف: ١٧٢

فلست واجدا أحدا إلا وهو مقر بأن له صانعا ومدبرا، وإن سماه بغير اسمه، أو عبد شيئا دونه، ليقربه منه عند نفسه، أو وصفه بغير صفته، أو أضاف إليه ما تعالى عنه علوا كبيرا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾الزخرف: ٨٧ فكل مولود في العالم على ذلك العهد والإقرار، وهي الحنيفية التي وقعت في أول الخلق، وجرت في فطر العقول.

قال رسول الله ﷺ : "يقول الله تبارك وتعالى: إني خلقت عبادي جميعا حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم" ثم يهود اليهود أبناءهم، ويمجس المجوس أبناءهم، أي يعلمونهم ذلك(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "والله سبحانه فطر عباده على شيئين إقرار قلوبهم به علماً ،وعلى محبته والخضوع له عملاً وعبادة واستعانة فهم مفطورون على العلم به والعمل له وهو الإسلام الذي قال فيه النبي ﷺ "كل مولود يولد على الفطرة" وفي رواية "على هذه الفطرة" وفي الصحيحين عن الزهري وعن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الروم: ٣٠ (٣).

---

(١)فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٤٨) وانظر قول ابن عبدالبر رحمه الله في الاستذكار (٣/ ١٠٢)

(٢)تأويل مختلف الحديث (ص: ٢٠٠)

(٣)بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٤/ ٥٨٥)

فيكون بهذا مافطر عليه الإنسان من الإقرار بالخالق والعبودية له والمحبة له دليلا على الربوبية ، وهذه أقصر الطرق وأقربها والصقها بالإنسان فهي معجونة في طينته وداعيها والمحرض عليها جزء من تكوينه وخلقته، فالأمر الموجب للإقرار بالربوبية ودافعه وباعثه مركوز في البشر عموما قبل أن يولدوا وهو معهم بعد أن يولدوا .

لكن نحتاج هنا أن ننبه على أمرين:

أولهما : أن الإنسان مخلوق مفطور على أشياء كثيرة جداً منها ما ذكره الله ﷻ في قوله ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ آل عمران: ١٤ ومنها أنه مجبول على حب الطعام الطيب والماء العذب، والنفرة من الطعوم والروائح الخبيثة، وحب من أحسن إليه، وكره من أساء إليه، وحب الحياة وكراهة الموت وحب الخير وكراهة الشر إلى غير ذلك ، وهي فطرة قوية ليس من السهل تغييرها أو تبديلها وذلك لأنه لايتعلق بها ابتلاء أو امتحان بل يتعلق بها أمور عديدة منها أن بها قوام الإنسان وصلاح معاشه وحياته. فهي بمثابة المسار الملزم للبشر للسير عليه والعيش وفقه وخارطة الحياة، وهي التي تحفظ كيانه من الفساد قال تعالى ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ طه: ٥٠ فلايستطيع الناس مسلمهم وكافرهم الخروج عنها إلا بالمصادمة والمعالجة القوية حتى يمكن لأحدهم الخروج عن الفطرة ،أو المرض الصارف، قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله :

كما أن كل مولود يولد فإنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة، فيشتهي اللبن الذي يناسبه. وهذا من قوله تعالى: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ، وقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ الأعلى: ٢ - ٣، فهو سبحانه خلق الحيوان مهتدياً إلى طلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ثم هذا الحب والبغض يحصل فيه شيئاً فشيئاً بحسب حاجته.

ثم قد يعرض لكثير من الأبدان ما يفسد ما ولد عليه من الطبيعة السليمة والعادة الصحيحة".[1]

(١)شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٦٦)

ثانيهما: أن فطرة الإقرار لله عز وجل بالربوبية والألوهية من ضمن تلك الفطر إلا أنها من الفطر القابلة للتأثر والتغير والانحراف بفعل مؤثرات خارجية، ولذلك نعتقد بأن السبب في وجود الوثنيات السابقة في الأمم البائدة، واللاحقة في الأمم القديمة والحاضرة هو هذه المؤثرات التي وردت في هذه النصوص.

وهذه المؤثرات التي تؤدي إلى انحراف الفطرة عن وجهتها الصحيحة على ضوء هذه الأدلة ثلاثة وهي:

١- الشياطين: وهي المؤثر الخارجي الأصلي والأول في هذا الأمر كما دل على ذلك حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ المتقدم.

٢- الأبوان ويقوم المجتمع بدور الأبوين في حال فقدهما: وهذا المؤثر هو أقوى المؤثرات، وأشدها خطورة لشدة التصاق الأولاد بآبائهم وقوة تأثيرهم عليهم. وقد دل على ذلك حديث أبي هريرة ﷺ المتقدم.

وقد قدمت الشياطين على الآباء لأن الشياطين هي المؤثر الخارجي الأول في انحراف الآباء أنفسهم.

٣- الغفلة: وهي المؤثر الثالث في انحراف هذه الفطرة كما دلت على ذلك آية سورة الاعراف.

ولسائل أن يسأل: ماهي فائدة الفطرة وهي على هذه الحال من الضعف حيث تتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التي تؤدي إلى انحرافها، ولايكاد الإنسان ينفك عن واحد من هذه المؤثرات والصوارف، أو كلها؟

والجواب عن ذلك أن يقال: إن حكمة الله اقتضت جعل الفطرة بهذه الحال ليتحقق الغرض من ابتلاء الإنسان بالخير والشر ومن ثم جزاؤه على عمله، إذ لو كانت الفطرة قوية لاتتأثر بشيء لما وقع الكفر والانحراف في بني آدم، بل صاروا غير قابلين للكفر فلايتحقق الابتلاء، ولله الحكمة البالغة.

ومع ذلك فإن لهذه الفطرة فوائد عديدة منها:

أولاً: أن هذه الفطرة غرزت في النفس البشرية التدين والتعبد لله تعالى، فإذا لم يهتد الإنسان إلى الله ﷻ فإنه يُعبد نفسه لأي معبود آخر ليشبع في ذلك نهمته إلى التدين، وذلك كمن استبد به الجوع فإنه إذا لم يجد الطعام الطيب الذي يناسبه فإنه يتناول كل مايمكن أكله ولو كان خبيثاً ليسد به جوعته.

وهذا ما يفسر لنا وجود التدين عند عموم البشر وقد يكون الدين والمعبود في كثير من الأحيان باطلاً.

ثانياً: أن هذه الفطرة جعلت في جبلة الإنسان قبول العبودية والانسجام مع لوازمها، وهذا من الأمور المهمة للإنسان، لأن كل مالا يتفق مع الفطرة فإن النفس تنفر منه ولا تستجيب لمتطلباته.

ثالثاً: ان هذه الفطرة مرجحة للحق ، فإذا تعرف الإنسان على دينين حق وباطل، فإن الفطرة تميز بينهما وتميل إلى الحق بل يقع ذلك في قرارة النفس ويتيقن القلب منه، فإما أن يعلن ذلك ويلتزم به، أو لا يستجيب له بسبب هوى، أو خوف، أو إلف وتقليد ونحو ذلك من الصوارف عن الحق. كما قال ﷻعن فرعون وقومه {**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا**} النمل آيه (١٤).

رابعاً: أن هذه الفطرة تهب للمهتدي يقينا بالحق الذي هو عليه وإن لم يكن عنده من الأدلة النظرية مايهبه هذا اليقين، وهذا يفسر لنا –والله اعلم– عدم ترك المسلم لدينه رغبة عنه وماذلك إلا لتناسبه مع فطرته، فيعطيه ذلك يقينا بأنه الحق، وكذلك من اهتدى إلى الإسلام من ذوي الأديان الأخرى الباطلة، فإنه يتمسك به تمسك الغريق بحبل النجاة، وماذلك إلا لتيقنه من أن هذا الدين هو الحق، لتناسبه وانسجامه مع الفطرة. والله اعلم.